المارد الذي يحب نفسه

للكاتب الانجليزي أوسكار وايلد

بقلم الأستاذ فخري شهاب السعيدي

كان الأطفال قد اعتادوا دخول بستان المارد واللعب فيه حين يعودون من المدرسة عصر كل يوم. وكان بستاناً واسعاً، رقيق الحواشي، قد اكتست أرضه بالعشب الأخضر الطري، وانتثرت في أرجائه الأزهار الجميلة كأنها النجوم. وكانت فيه اثنتا عشرة شجرة من أشجار الخوخ التي تتفتق في الربيع عن أزهار رقيقة زاهية الألوان كأنها اللآلئ، تتحول في الخريف إلى ثمار يانعة سائغة. وكانت الأطيار فيه تعتلي غصون الشجر وتغرد في عذوبة تصرف الأطفال عن ألعابهم وتستوقفهم مأخوذين، فلا يملكون أن يعبروا عن نشوتهم بغير هذا القول:

— ألا ما أسعدنا في هذا المكان!

غير أن المارد عاد يوماً من زيارة أحد أصدقائه النيلان، بعد أن لبث معه سبع سنين، أنهى في خلالها كل ما أراد أن يحدثه به — فإن محادثته كانت محدودة تنتهي ولا شك — عاد المملاق إلى قصره فرأى الصغار يلعبون ويمرحون في البستان! فصرخ فيهم بصوت خشن غليظ قائلاً:

— ماذا تصنعون هنا؟

فانطلق الأطفال من فورهم هاربين! ثم استأنف المارد صراخه قائلاً:

— إنما هذا البستان ملكي، وذلك ما يستطيع إدراكه كل إنسان؛ ولست أسمح لأحد غيري باللعب فيه أبداً!

ثم قام فصنع له جداراً رفيعاً سوّر به بستانه، ورفع لوحة كتب عليها هذا الإعلان:

سيُجزى المخالفون
بئس الجزاء

فياله من مارد لا يؤثر أحداً بالحب سواه!

ولم يبق حينذاك للأطفال المساكين ملعب يرتمون فيه. لقد حاولوا أن يتخذوا لهم من الشارع ملعباً، ولكنهم زهدوا فيه حين وجدوه مليئاً بالأتربة والأحجار، وظلوا كذلك يحومون حول الجدر الرفيعة — حين ينتهون من دروسهم — لاهجين بجمال ذلك البستان الذي وراء تلك الأسوار، وبأيام سعادتهم التي انتهت، يقولون:

— ألا ما كان أسعدنا هناك!

ثم قدم الربيع وانتشرت بمقدمه الأزهار والأطيار في كل ناحية على الأرض غير بستان هذا المارد اللئيم الذي لم يبرحه الشتاء. إن الأطيار لم يعنها أن تغرد فيه حين غاب عنه الأطفال؛ وإن الأشجار قد أُنسِيَتْ أن تورق أو تزهر... ولقد أخرجت إحدى الأزهار الجميلة مرة رأسها من بين الأعشاب فهالها وأحزنها أن ترى لوحة الإعلان تمنع الصغار من غشيان البستان، وانسلت هاربة لتستأنف نومها العميق الذي كانت مستغرقة فيه. ولم يكن في العالم أحد قد استولى السرور عليه غير «الثلج» و«الجليد» اللذين قالا في نفسيهما:

— إن الربيع قد أُنسِيَ هذا البستان،

ولذلك فإننا سنحيا هنا طوال العام !

وكذلك طفق « الثلج » على الأعشاب وأسبل عليها طرف ردائه السابغ ، وانتشر « الجليد » على الأشجار فكساها حلة من الفضة ازدانت بها ؛ ثم إنهما أمرا ريح الشمال أن تبقى معهما فلبّت أمرهما ، وجاءت ملتفة بالفِراء تصفر طوال النهار خلال البستان والمداخن ، فرحة بهذا المكان البهيج

ثم إنهم قرروا دعوة « البَرَد » فنزل وأنشأ يتحدر كل يوم ثلاث ساعات بشدة حتى يكسر بلاط القصر ، فإذا تم منه هذا أمعن هرباً حول البستان يطوف بأقصى ما أوتيه من سرعة ! لقد كان برداً عجيباً أغبر ، وكانت أنفاسه بيضاء كالثلج !

وقد جلس المارد اللئيم ذات يوم فى الشباك المطل على البستان الأجرد الشاتى ، وقال يحاور نفسه :

— ما أقدر أن أفهم سبب تأخر الشتاء حتى الآن ! وما أظن إلا أن تغيراً قد طرأ على الجو .

ولكن الشتاء لم يأت ، ولا جاء بعده صيف ولا خريف . . . بل إن الخريف نفسه جاء وأنضج الثمار فى كل بستان إلا فى بستان هذا المارد الذى كان يعرفه الخريف لئيماً لا يحب أحداً غير نفسه !

وإن المارد لمضطجع ذات صباح فى فراشه إذ سمع أنغاماً شجية تطرق أذنيه خُيّل إليه لعذوبتها أنها من فرقة موسيقى الملك حين كانت تجتاز فى الطريق ، ولم تكن تلك الأنغام الشجية غير صدح طائر صغير كان يشدو على بعد من نافذته . لأنه ما كان سمع من أمد بعيد شدو طائر ، فظن أن ما طرق أذنيه أعذب ما فى العالم من ضروب الألحان !

ثم إن البرد وقف تهتانه من حوله ، وريح الشمال قطعت هزيزها ، وجاءت المارد من النافذة نفحةٌ من أريج عبق جميل . فقال المارد فى نفسه :

— ما أحسب إلا أن الربيع قد جاء أخيراً .

وقفز من فراشه ، فماذا رأى !

إنه لمنظر جد جميل !

أولئك هم الأطفال الصغار ، قد دخلوا البستان من خلال نقب صغير وجدوه فى أحد الجدر واعتلوا الأغصان وبقوا هنالك جالسين . وقد ابتهج الشجر بمقدمهم فأورق ، وماس على رؤوسهم فى حب وحنان ، وكان الطير يشدو حيناً ويطير حيناً فى جذل وابتهاج ، والزهر يرنو إلى ذلك بسام الثغور من بين الأعشاب

— إنه حقاً لمنظر بهيج !

ولكن الشتاء لما يبرح تلك الزاوية القصية التى وقف فيها أصغر الأطفال يعول طوراً ، ويطوف بما حوله طوراً آخر ، والشجرة المسكينة التى بقربه ما تزال شاتية .. إن ذلك الطفل لم يتمكن من الوصول إلى الغن لصغره ؛ وكانت الريح الشمالية تعصف حوله ، والشجرة تنحنى له ما استطاعت وتدعوه قائلة :

— تسلق أيها الصبى الصغير ... ولكنه ما يقدر على شىء من هذا !!

... وأدركت المارد عليه الشفقة حين رآه فقال :

— ألا ما كان أشد إيثارى لنفسى ! لقد عرفت الآن سبب انقطاع الربيع عن المجىء إلى هنا .. سأذهب إلى ذلك الطفل فأضعه على الشجرة ، ثم أنثنى على الجدار فأهدمه وأجعل من بستانى هذا ملعباً وقفاً على الأطفال حتى الأبد . . . واشتد أسفه على ما كان بدر منه

ثم إن المارد نزل وفتح بابه فى هدوء وسار فى بستانه ؛ ولكن ما إن رآه الأطفال حتى أوغلوا هرباً ، وعاد الشتاء إلى البستان من جديد ! ولكن صبياً واحداً منهم لم يهرب ، ذلك هو الصغير الذى ملأت عينيه الدموع لما رأى المارد قادماً إليه

وتسلل المارد إلى الطفل ورفعه بلطف فأجلسه

على الشجرة فما كان أسرعها حين أورقت وازدهرت ، وما كان أسرع الأطيار حين تساقطت عليها مغردة حائمة حول الصبي الصغير الذي كان يحولها عنه إلى عنق المارد مسروراً . ثم انحنى الطفل على المارد فقبله ، فلما رأى أصحابه ذلك أمنوا المارد وعادوا وعاد معهم الربيع ، فقال المارد يخاطبهم :

— إنه بستانكم أيها الصغار الآن . ثم تناول معولاً كبيراً فهدم به الجدر القائمة حول البستان . فكان الناس إذا مروا به في طريقهم إلى السوق في منتصف النهار رأوا المارد يلاعب الأطفال في أجمل بستان تقع العين عليه !

وظل دأب الأطفال كذلك ، يلعبون طوال النهار ، حتى إذا أمسى المساء وخيم الليل ، جاءوا إلى المارد لحيوه وانصرفوا ...

وقد سألهم المارد مرة عن صديقهم الصغير الذي كان رفعه على الشجرة ، فأجابوه بأنهم لا يدرون عن أمره شيئاً ، فإنه ذهب ولم يعد ... إنهم لم يروه من قبل ، ولا رأوه من بعد ، ولا يعرفون أين يسكن . لشد ما حزن المارد على ذلك الطفل الصغير الذي قبله !

* * *

بقي الأطفال على هذا : يختلفون إلى البستان عصر كل يوم بعد انتهاء دروسهم ، فيلعبون مع صديقهم المارد ... غير أن الطفل الصغير وحده كان المتخلف من بينهم أبداً . ولكم كان المارد يشتاقه ويحبه ، ويتحدث عنه ويتمنى أن لو رآه .

ومضت على ذلك السنون تتبعها السنون ، فشاخ المارد وعجز عن مشاركة صغاره اللعب . فكان يجلس على مقعد وثير ليتفرج عليهم هانئاً مغتبطاً . وكان يقول في نفسه :

— إن في هذا البستان لكثيراً من الأزهار الجميلة . ولكن أجمل منها في نظري هؤلاء الصغار

وفي صباح يوم شات .. وقد أصبح الشتاء الآن لا يفزع المارد ، فما هو الآن عنده غير إغفاءة قصيرة لا يلبث الربيع بعدها أن ينهض بأزهاره وتهاويله . في صباح ذلك اليوم ، بينا كان المارد يرتدي ثيابه إذ بصر بشيء هاله ، فنكذب نظره وكذب نفسه... إنه منظر مدهش عجيب ! أفي الإمكان هذا ؟ شجرة حالية بالنوار الجميل في تلك الزاوية القصية وتحتها طفله الصغير الذي أحبه واقفاً ؟

هرول المارد نازلاً يستخفه الفرح ، وجاز أرجاء الحديقة مسرعاً حتى جاء إلى الطفل ؛ وما كاد أن يقترب منه ويراه حتى طما غضبه وازبد وجهه ، وسأله قائلاً حين بصر بآثار مسمارين على يديه ومثلهما على رجليه :

— من ذا الذي تجرأ فجرحك ؟ قل من ذا الذي تجرأ عليك ففعل ؟

فأجابه الطفل الصغير :

— كلا . ما تلك بجروح حقيقية . إنها جروح الحب !

وهنا استولت على قلب المارد الرهبة والخشوع فخر ساجداً أمام قدمي طفله وسأله قائلاً :

— من أنت إذاً ؟

فأجابه الطفل باسماً : أنا الصبي الذي سمحت لي مرة باللعب في بستانك هذا ، جئت لآخذك معي إلى بستاني الذي هو الفردوس

* * *

وحينما جاء الأطفال عصر ذلك اليوم كعادتهم وجدوا المارد ميتاً في مكانه تحت تلك الشجرة ، وقد نثرت على جثمانه الأزهار والنور الأبيض الجميل

« بغداد » فوزي شهاب الصعيدي